"المنهج التفكيكي في الفكر الإسلامي المعاصر"

جامعة الجزائر
كلية العلوم الإسلامية

من مجموع الأطاريح والرسائل التي تعالج قضايا الواقع الإسلامي المعاصر ؛ نوقشت بكلية العلوم الإسلامية/ جامعة الجزائر في شهر أيار(ماي) من العام(2008) أطروحة دكتوراه للباحث :"عز الدين معميش" بعنوان:" المنهج التفكيكي في الفكر الإسلامي المعاصر" ؛أشرف على الأطروحة الأستاذ الدكتور "يوسف حسين" أستاذ التعليم العالي بجامعة الجزائر ؛وهو واحد من النخبة الإسلامية الذين عايشوا المرحلة الذهبية للتفكيكية في الولايات المتحدة ولم يتأثروا بموجاتها؛ بل على العكس ساهم في التأسيس للبديل الفكري الأصيل من خلال المعهد العالمي للفكر الإسلامي بواشنطن ؛ومن هنا تكمن أهمية هذا الإشراف في الكشف عن خفايا هذا المنهج المجهول لدى الغالبية من النخب في العالم الإسلامي مع أنه هو المتحكم الفعلي في مسيرة الحياة الثقافية والفكرية. ورأس لجنة المناقشة:المفكر الجزائري المعروف الأستاذ الدكتور:"عمار طالبي". وقد تولى الإشراف المعنوي على هذه الأطروحة المؤرخ والمفكر الأديب الكبير الراحل الدكتور "عبد الوهاب المسيري" والذي ترك آثارا كثيرة في دراسات ما بعد الحداثة. وقد بدأت قصة هدا البحث في بيروت،ونشأت في دمشق ،ونضجت بالجزائر واكتملت واستوت بالقاهرة؛ فهي معايشة نقدية نظرية وميدانية لرواد الحداثة في العالم الإسلامي.

وإذا كان التفكيك يعد إحدى المنهجيات الأساسية التي نهضت على الجهود اللغوية الحديثة؛ فإن أصوله الفلسفية لها علاقة قوية بمبدأ التشكيك الذي عرفه الغرب والعالم الإسلامي على السواء عند السفسطائيين مع الاختلاف في الآليات وكيفية توظيفها، وإذا كان التجريد مهما في بناء النظريات؛ إلاّ أنه كثيراً ما يُبعد الأنظار عن المعنى الأساسي والبسيط للمفاهيم ونشأتها، كما أن القراءة عادة ما تكون إدراكاً سلبيا لمجموعة من الصور الذهنية تؤلِّف رؤية يدّعي صاحبها أنها لا حقَّ سواها، وفي الحقيقة ما هي إلاّ انسحاب للقارئ عن العالم الاعتيادي والسقوط في حالة من الإعجاب؛ تؤدي إلى قراءة غريبة لمحتوى الأفكار والتقاليد والأخلاق خارجة عن الحضور الزماني والمكاني .

وقد كانت ولا زالت القراءة التفكيكية للتراث في العالم الإسلامي محكومة بهذا التوصيف،منعزلة عن واقعها ،منبهرة بغيرها، متبنية لقيم ما بعد الحداثة المنفصلة عن القيمة،والمتجاوزة للقيم التقليدية الإطلاقية ؛حيث يغدو الإنسان في منظومتها غير مختلف عن الطبيعة؛ بل هما مادة واخدة نسبية لا قداسة لها وخاضعة للقانون الطبيعي، ومن ثم يمكن إخضاعها للمقاييس الكمية الرياضية. كما أن الإنسان في هذه المنظومة لا يختار ولا يقرر ؛فكل شيء قد تم اختياره وتقريره له ؛فهو لا يحمل أية أعباء أخلاقية ،فهو يتصرّف بشكل آلي حسب طبيعته ؛وطبيعته لا خير فيها ولا شر ولا أسئلة كبرى ...فهو أثر من آثار الحتمية لا غير؟... وهذه هي الاستنارة المظلمة ؛التي تفكك الإنسان ولا تجعل له أية مركزية أو مكانة خاصة أو مزية على الكائنات الأخرى؛ ففيها يتم الاستغناء تماما عن أية لغة روحية أو مثالية ، ويخضع كل شيء (الدين،النص ،الهوية ،التاريخ...) للعبة الدوال المفتوحة؛ ويتم قولبتها دائما وفقا لقواعد هذه اللعبة.

وتبعاً لكل ما سبق قوله، برزت إشكالية ملحّة، وهي : إلى أيِّ مدى يمكن للمكوّنات الحضارية الاستعصاء على هذه النظريات والقراءات والمناهج الحداثية ؛ خاصة التفكيكية؟ وهل يمكن الاستفادة منها في إيجاد نظرية قرائية موضوعية؛ تُسهِم في خلخلة الجمود الراهن، وترأب الصدع الذي أحدثته المعالجات المستوردة لأركون وأمثاله ، وتبرز المساحة الواسعة لنطاق النظر النقدي في الإسلام ؟

وللإجابة عن هذا الإشكال: قسّم الباحث أطروحة الدكتوراه هذه إلى ثلاثة أبوا ب:

الباب الأول : مفهوم التفكيك

الفصل الأول :

خصّصه للتعريف بالتفكيك لغة واصطلاحا، والأساس الذي اعتمده باعتباره منهجا ، فالبيئة التي ولد فيها ، والمؤسِّس ثم الرواد الأوائل .

وقد توصل إلى أن التفكيك منهجية قرائية واسعة وشاملة وفعّالة، ونظرية مثلى في قراءة الأدب والفلسفة والدين وشتى مناحي العلوم، وقد كان الميلاد مسكوناً بالآخر من أوّل لحظة، نظراً لخلفية المؤسِّس " جاك دريدا" المتأثّر بالتيه اليهودي، وعدم القرار على مبدأ ووطن .

ونبعت منظومته من عدة مصادر ، أهمها :

ـ **البنيوية**: وهي إلى جانب اليهودية ؛ الأكثر تأثيراً ؛ حتى عُدّت التفكيكية نظرية ما بعد بنائية .

ـ **والمادية الجدلية**: فيمكن اعتبار دريدا من خلال هذه الدراسة وارث منهج "هيغل" الجدلي ؛ ولكن ليس بدائرة مثلّثة الأضلاع ؛ بل بفراغ مفتوح .

ـ **والتراث الصوفي**: حيث تظهر نبرة شاكية حزينة في عبارات نقاد التفكيك؛ وعند المقارنة بينها وبين الصوفية، خاصة المسلمين منهم؛ عثرنا على الخيط الرابط متجسدا في: الارتحال وعدم القرار والضياع...الخ، وفُسِّر الأمر؛بنشأة دريدا بالجزائر؛ المعروفة بتراثها الصوفي .

ـ وهناك مصادر أخرى رئيسة وثانوية ، ساهمت في بلورة الخطاب التفكيكي المعاصر .

الفصل الثاني : فعل التفكيك

في هذا الفصل كشف الباحث عن الميدان الحقيقي لممارسة التفكيك ، وآليات هذه الممارسة ؛ من خلال التعريف بالنص في المنظومة التفكيكية؛ وقد حدّده؛ بأنه :(بنية اختلافية كبرى؛ يظل فيها المعنى يتشظّى ويتمظهر) .

وعليه فالمعنى ليس رهناً باللفظ ، بل هو رهن بالقارئ أو المؤوِّل، وهذه النقطة هي عماد القراءة المعاصرة؛حيث كانت شهادة ميلاد للقارئ ومصطلح" القراءة "بمعناها النقدي المعاصر، ونعياً للمؤلِّف، كما أكّد على ذلك رواد التفكيك في الغرب، خاصة "بارت " و"كريستيفا"، فالقارئ هو الوحيد القادر على تقديم التأويل المناسب ؛ ومن ثمَّ فإن كل قراءة صحيحة ؛ هي قراءة خاطئة ما دامت رهناً بوعي ما ؛ لأنه في دوامة التغيّر ؛ وهكذا تنفتح القراءة لمجالات غير محدودة ، وهي ترجمة حقيقية لخرافة "المعنى الحقيقي "، فلا أصل ولا ثبات ولا قيم سائدة .

وقد أثبت رجوع هذا الانفتاح إلى فلسفة الشك القديمة وكذا لعبة الاختلافات الجدلية؛ التي لا يمكن فصلها عن الطبيعة العفوية أو الاعتباطية للعلامة اللغوية في النص.

ثم بيّن آليات القراءة ؛ المتمثِّلة خصوصاً في : التفسير، والتأويل، والاستنطاق ؛ الذي يعد الآلية الأنجع في القراءات التفكيكية؛ وقد أُدخل مجالات لا تخطر على البال؛ كعلم النفس والتصوير الضوئي وعلم التواقيع ...الخ ومن خلال العرض المتدرِّج في هذا الفصل ؛ تبيّن الانعكاس المتوالي للأدب على الفلسفة والحياة ؛ أي إن المعالجة التفكيكية هي في أصلها ممارسة نقدية أدبية طالت ميادين خارجية .

الباب الثاني : المنهج التفكيكي في الفكر الإسلامي المعاصر

هذا الباب مناط البحث ؛ حيث أبرز الباحث انتقال التفكيك إلى العالم الإسلامي، باعتباره فكراً جديداً ،لا يخرج عن ربقة الدين – حسب معتنقي التفكيك - ،ومن هذا المنطلق عالج الباحث دراسته النقدية ؛ من باب المحاورة العلمية ؛ وليس إصدار الأحكام الفقهية أو القضائية.

فكان الفصل الأول: في الكشف عن حقيقة الفكر الإسلامي؛ لغة واصطلاحاً من خلال التراث، والممارسات السابقة في التاريخ الإسلامي، وعند ذلك حدّده بأنه: (الحركة اليومية الحية: نظراً وتأملاً وحواراً في تاريخ المسلمين). وبهذا التحديد يمكن إدراج فكر هؤلاء ضمن الفكر الإسلامي باعتبار الانتساب؛ وليس باعتبار الممارسة، تاركين مجال الأحكام القضائية خارج النطاق الأكاديمي.

وفي الفصل الثاني :

تعرّض الباحث فيه للتفكيك في العالم الإسلامي ؛ كيفية انتقاله، ورواده، والنزعات الأولى في نهاية الستينيات من خلال رسالة الدكتوراه التي طرحها المفكر الجزائري "محمد أركون" ، ثم احتكاك جيل السبعينيات ، مع الطفرة التفكيكية في الثمانينيات ، من خلال مجلاّت عملاقة وإصدارات كثيرة ومتنوّعة ؛ مارستْ ضغطاً هائلاً على الرأي العام الإسلامي؛ وخاصة في موضوعات :

-الثابت والمتحوِّل. – الهوية والآخر.

-النص والعقل. - التراث.

-التفسير المعاصر. - محدودية التشريع.

و كانت نتاجاً لدراسة متأنية عن موضوعات التفكيكية في البيئة الإسلامية . وقد اختصر الناقد جابر عصفور وعي القارئ المعاصر ؛ بقوله : (حالة وعي تنبثق في اللحظة التي تتمرّد فيها الأنا الفاعلة للوعي ، على طرائقها المضادّة في الإدراك).

الباب الثالث :عقلانية وموضوعية التفكيكية الإسلامية

درس الباحث فيه بتركيز شديد وبحس نقدي ؛ هذه المنهجية وموضوعاتها : جذوراً وحضوراً ومآلا.

الفصل الأول :نقد الجذور

أبرز الباحث السقطات العلمية والمنهجية والنقدية لهذا المنهج ، والتناقضات الصّارخة لتعاليم رواده وممارساتهم على مستوى الذات والنسق والسياق والمبادئ ، وتوصل إلى أنها حالة غنوصية (gnossetique)عليا، تميل إلى الهذيان اللفظي المسكون بذكرى أليمة، لا شك أنها هنا: ذكرى الانحطاط الحضاري الغربي إبان الحربين العالميتين واستعمار الشعوب، ففيها سقطت معاني وقيم الإنسانية والحداثة وتحقيق سعادة الإنسان، فكان الفكر الهدمي المابعدي، ترجمانا لهذا السقوط.

وفي الفصل الثاني:

كشف الباحث عيوب وقصور منهج النقاد في العالم الإسلامي؛ وذلك بطريقتين:

– من خلال عرض مزايا القراءة الإسلامية، أي: الاجتهاد في الإسلام، بإبراز دور نظرية النَّظْم في تفسير المعاني وضبط علاقة اللفظ بالمعنى، ثم بإحكام منطق الإحالة في الاجتهاد الشرعي، في مسائل:الدّلالات والألفاظ الشرعية، وانفتاح المصطلح الأصولي لقراءة مضبوطة ومتوازنة؛ تراعي مقاصد المُكلّف، وتظل متواصلة مع الأصل والمنبع.

– والطريقة الثانية : مقارنة منهج رواد التفكيك في العالم الإسلامي بما جاء نِتاجاً لنظرية النَّظْم ومنطق الإحالة والكفاءة الاجتهادية(القرائية) الشرعية.

وفي الفصل الثالث:

أبْرَز الباحث الإشكالات الناجمة عن التطبيق المتعسِّف لنظريات غربية، من خلال الإتيان بعكس المقصود فيما يخص التاريخانية (historicité) ؛ حيث أبانت "التاريخية"عن إحكام غير معهود للنقد الداخلي والخارجي للنصوص في التراث الإسلامي.

وأظهر أيضاً إشكالية المصطلح التفكيكي،وعقمه، وابتعاده عن الاشتقاق القاعدي العلمي، والترجمة الموثوقة المبنية على مراعاة البيئة والظروف العامة وكيفية النقل إلى بيئة ولغة أخرى؛ عكس ما تعتمده النظريات العلمية المعتبرة قديما وحديثا في طرق صياغة ونحت المصطلحات .

وقد حاول هذا البحث أن يخلخل البنية الحقيقية للعقل الغربي ونسخه ؛وإبراز التكوين اللاّشعوري للنفس المتردِّدة المستورِدة ،وتعاملها مع الذات والآخر. ثم التلميح بمشروع نظرية جادة وموضوعية في قراءة التراث مبنية على منطق الإحالات الحديث والقديم؛ غير مجازفة ومتعسِّفة ، تمنى الباحث أن يُوفَّق في الكشف عنها في المستقبل القريب إن شاء الله.